

الجلسة الأولى:

التعليم



فلسفة التعليم: السباحة في المجال الحيوي

د. سمير بودينار^(١)

"إن إصلاح أي أمة لا يكون بالقضاء على الشرور، بل بتربية الأجيال تربية صحيحة وبتثقيفها ثقافة صحيحة، ورفعها إلى مستوى الإنسانية الحق..."

محمد فتح الله كولن^(٢)

تقديم

لا نبالغ إذا قلنا إن التعليم هو الآلية المركزية في فعل الحركة الإصلاحية الحديثة في عالم المسلمين، منذ بداية ظهورها خلال القرنين الماضيين؛ إذ تكاد الدعوة إلى التعليم مقترنة بحركة ميدانية لبناء المدارس، ونشاط منظم داخلها من خلال عملية تعليم قاصدة ومنظمة، تكون السمة الجامعة بين كافة دعوات الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث، أو المعتبرة من بينها على الأقل.

ولا غرابة في ذلك بالنظر إلى أن تحقيق المقاصد الكبرى لدعوات الإصلاح، والأهداف الأساسية لتلك الدعوات، تقتزن كلها بالتعليم كفكرة ومجال وإطار للعمل والحركة، وهو الحقل الذي يشكل البيئة المناسبة للفعل المجتمعي لدعوات الإصلاح.

^(١) أستاذ بجامعة محمد الأول - رئيس مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - وجدة-المغرب.

^(٢) فتح الله كولن، الموازين أو أضواء على الطريق، دار النيل للطباعة والنشر، الطبعة الثانية ٢٠٠٦، ص ٧٧.

فمن الدعوة إلى إصلاح التعليم كفكرة جامعة مع النهضة الإسلامية الحديثة، إلى المدارس الأهلية في المشرق العربي، إلى المدارس الحرة التي نشطت في الدعوة إلى إنشائها السلفية الإصلاحية في المغرب ومن خلالها الحركة الوطنية التي شكلت المدارس الحرة واجهة أساسية من واجهات مقاومتها للمستعمر ومؤسساته في صياغة الوعي وصناعة النخبة، مروراً بمجهودات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في هذا المجال، خصوصاً رائدها المؤسس الشيخ عبد الحميد بن باديس، وخليفته الشيخ البشير الإبراهيمي، ومدارس النور التي أسسها طلاب العالم والمصلح التركي الكبير بديع الزمان سعيد النورسي بتأثير من رسائله التي بثها في تركيا ثم ترجمت وانتشرت في مناطق كثيرة والمسماة "رسائل النور"، وصولاً إلى نموذج المدارس العربية والإسلامية في الغرب، التي نتجت عن استقرار جاليات إسلامية كبيرة في تلك البلاد بالتزامن مع تزايد حركة الهجرة نحو أوروبا وأمريكا الشمالية منذ مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، حيث أدى ذلك إلى نشوء مجتمعات مسلمة كاملة جديدة في الغرب، مع ما واكبه من تنامي الوعي بالهوية والانتماء وظهور حاجة لتعليم خاص بتلك الجاليات إلى قيام تعليم عربي وإسلامي موازٍ في تلك البلاد المَهَاجِر.

وحين نتجه إلى تحليل دور التعليم لدى حركات الإصلاح في عالم المسلمين من حيث كونه أداة مركزية في بلوغ المقاصد الكبرى لتلك الحركة، والبيئة المناسبة لنشاطها لبلوغ تلك المقاصد، فإن التعليم حينئذ يبدو كما لو أنه المجال الحيوي الضروري لحركة الإصلاح ومستقبلها، سواء بالنظر لكونه قناة التواصل الأساسية للرؤى التي تحملها والقيم والأفكار التي تبشر بها والنماذج التي تقدمها وتدعو إليها، أو اعتباراً لأهمية التعليم جسراً بين مجتمع الفكرة الأصلي وبين غيره من المجتمعات، وخاصة ما يقع في دوائره القريبة، أو ما يؤديه التعليم من دور بالنسبة لمشاريع الإصلاح الإسلامي عموماً في أداء رسالتها عبر العالم، امتداداً للدور المهم للتعليم في إتاحة فرص التأثير بين عالم المسلمين ومجال شهوده الحضاري الممتد على مساحة العالم، انطلاقاً من رسالته الإنسانية للعالمين.

١. الرؤية الإصلاحية عند الأستاذ كولن

أ. النموذج التفسيري: حركة نماذجها من ذاتها

غير أن التجربة التي تستوقفنا في هذه الورقة أكثر من غيرها هي التجربة التركية الحديثة في مجال التعليم، والتي تمثل بشكل من الأشكال امتدادا لمدرسة "رسائل النور" ومؤلفها بديع الزمان النورسي، وإن في صيغة اجتهاد معاصر داخل هذا الاتجاه، والمقصود هنا التجربة التي أسسها الأستاذ فتح الله كولن أحد رواد منهج الإصلاح الإسلامي الحديث في تركيا، والذي تتسم أفكاره ودعوته، وبالتالي ما نشأ بتأثير من تلك الدعوة من عمل ميداني، وبنية مؤسساتية، بالاهتمام الشديد بالتعليم؛ حتى إنه يمكن القول إن حركة تعليم واسعة ومنظمة هي أهم التجليات الظاهرة لدعوة الرجل على الإطلاق، إلى جانب قطاعات أخرى موازية كالإعلام والنشر والمؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والصحية.

ولعله من المفيد هنا ونحن بصدد خبرات مقارنة حول مستقبل الإصلاح في عالم المسلمين، وخاصة مع حركة الأستاذ فتح الله كولن التوقف عند طبيعة هذه "الحركة" والتي يبدو من خلال دراسة طبيعة بنيتها وخصائصها الفكرية والتنظيمية أنها نموذج جديد للعمل الإصلاحي العام، ربما بدت معه أي مقارنة بين تلك "الحركة" وبين التجارب الإصلاحية المعاصرة، خصوصاً في العالم العربي، من قبيل القياس مع وجود الفارق، ذلك أن "حركة" الأستاذ فتح الله كولن ليست في الواقع حركة مركزية، ولا تنظيماً ولا جماعة أو طريقة، حيث يفسر الأستاذ كولن نفسه المسار الذي مضت دعوته عليه، وتأسيس المؤسسات الكثيرة بتأثير من تلك الدعوة بأن ما فعله هو أنه اقترح على الناس فكرة، وأنهم يطبقونها بناء على "معقولة الفكرة".

والواقع أن الشاهد الأهم على جدية هذا الكلام، هو أن الرابط بين كافة مؤسسات تلك "الحركة" - بما فيها مؤسسات التعليم - هو الفكرة وحدها، مع استقلال كل منها مالياً ومؤسسياً بشكل كامل.

ثم نجد الأستاذ كولن وهو يحاول مقارنة هذه القضية الإشكالية بالنسبة للبعض ممن حاول تفسير حركته باستخدام نماذج للفهم والتفسير من خارجها، يطرح مقارنة

"الحركة ذاتية النماذج"، ففي مقال له بعنوان "حركة نماذجها من ذاتها"^(١) يدعو الأستاذ كولن إلى دراسة وافية لتجليات دعوته في مجالات العمل المختلفة عبر العالم، مؤكداً: "إن هذه الحركة ظاهرة يجب أن تُشرح ويتم الوقوف عندها بشكل جدي"، مقدماً محاولة في دراستها، وموضحاً أنه "إن استطاعت محاولتنا هذه دفع بعض أرباب الهمة إلى البدء في هذه المهمة، فإن محاولتنا تكون قد وصلت إلى هدفها"، وهو حين يشرح ملامح النموذج الذاتي في تلك الحركة لا يبارح -كعادته- تركيز النظر والاهتمام حول قيم النموذج الإنساني الذي تمثله، سواء في مستوى البذل والعطاء، أو في رقي المثال الأخلاقي "فقدُ قررت فتة قليلة ملك الحب قلبها أن تنطلق لنيل رضاه تعالى إلى المشرق وإلى المغرب، وإلى أرجاء الأرض جميعاً في وقت لم يخطر فيه هذا بخاطر أحد.. انطلقت دون أن تهتم بآلام الغربة وبفراق الأحبة، ملؤها العزم والثقة".

وهو هنا يشير إلى الحركة الواسعة التي أقبل عليها طلابه بتوجيه منه، إلى التوجه إلى جميع بلدان العالم التي يستطيعون الوصول إليها، وتقديم دعوتهم للناس في شكل "خدمة" مؤسسية في كل المجالات الممكنة، وخاصة المدارس.

ثم يفسر الأستاذ كولن العلاقة بين النموذج الإنساني الذي يبشر به وينشده، وبين المنجز الحضاري والثقافي لهذا النموذج بأنها علاقة انعكاس إذ "تشكل فعالياته الفنية وأنشطته الثقافية بهذه المقومات الداخلية، ولئن كان الحاصل الظاهر أثرًا فنيًا أو كتابيًا أو رسمًا أو شعرًا أو لحنًا، فإنه يهتف بمشاعر وأحاسيس القلب المتغدي بهذا الأنموذج والجوهر الداخلي.. إذ تبدي رسمها الداخلي على الفن والثقافة والأنشطة الأخرى"^(٢). كل ذلك من خلال ثنائية الفكرة والحركة، أو الحركية والفكر كما يقول: "نحن نلخص خط كفاحنا كورثة الأرض بكلمتي الحركية والفكر. وإن وجودنا الحقيقي لا يتم إلا عبر الحركية والفكر... حركية وفكر قادران على تغيير الذات والآخرين. والواقع أن كل كيان ثمرة حركة ومجموعة من المبادئ والتصورات، كما أن بقاءه مرتبط باستمرار

(١) أنظر فتح الله كولن "حركة نماذجها من ذاتها" مجلة سيزنتي التركية، أغسطس ٢٠٠١، وترجمة أورخان محمد علي في مجلة حراء العدد ١٣ أكتوبر- ديسمبر ٢٠٠٨.

(٢) فتح الله كولن، الخصوصيات الأساسية للفكر الإسلامي، ترجمة عوني عمر لطفي أوغلو، مجلة حراء العدد: ١٦ (يوليو - سبتمبر) ٢٠٠٩.

هذه لحركة وتلك التصورات. وإن أهم شيء وأشدّه ضرورة في حياتنا هو الحركية^(١). إذن فالنموذج هو نتاج تفاعل بين الفكرة والحركة، أي إن الذي يصنع النموذج ويمنحه تميزه ليس الفكرة وحدها، بل قابليتها العملية عبر مبدأ الحركية، هذه التي تمثل في آن آلية تنزيل الفكرة على الواقع، وإعادة بناء مستمرة للنموذج.

ب. التعليم.. مركز المشروع

يختصر الأستاذ محمد فتح الله كولن أدواره وأدوار طلابه الكثر الذين تخرجوا من حلقات دروسه العلمية ومجالس وعظه بالمساجد السلطانية في المدن التركية، وخاصة إسطنبول في مهمة واحدة هي "التبليغ"، الذي يقول عنه الأستاذ كولن إنه "غاية وجودنا"^(٢)، أي إن هذه هي المهمة المركزية في الحياة من خلال فكره ودعوته، ولم يكن غريبا والحالة هاته أن تكون كتابات الأستاذ كولن عن المعلم من أوائل كتاباته، وأن يشتمل إنتاجه الفكري على كتابات في تعليم اللغة العربية^(٣). كما كان الأستاذ كولن يخاطب النابغين من طلبته منذ بداية دعوته موجها إياهم إلى التخصص في مجال التدريس، داعيًا إلى الاتجاه إليه رغم ما تتيحه العلامات المتقدمة لهؤلاء الطلاب من ولوج كليات القمة كالطب والعلوم السياسية والهندسة المتقدمة، ولعل هذا الأمر هو ما يفسر جزئيا المستوى العالي للمدرسين والأطر التربوية في المؤسسات التعليمية التي نشأت بتأثير من دعوة الأستاذ كولن.

وحين نتلمس مصادر هذا الاتجاه لديه من خلال رؤيته المعرفية نجد أن المنظور الذي يحكم المنهج الإصلاحي للأستاذ كولن يقدم إطارا فكريا لحقل التعليم، وذلك في مستويات ثلاث تمثل مفاتيح في فهم خصائص المنظومة التربوية وعناصر نجاحها في عالم اليوم، وهذه المستويات الثلاث هي: خاصية الإنسان وبشكل أدق ما يسميه الأستاذ كولن "الإنسان الجديد"، وخاصية الإسلام، وخاصية المرحلة أو العصر.

(١) فتح الله كولن، الحركية والفكر، ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو، مجلة حراء العدد: ١٢ (يوليو-سبتمبر) ٢٠٠٨.

(٢) محمد فتح الله كولن، طرق الإرشاد في الدين والحياة، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٣، ص ٢١.

(٣) الإشارة هنا إلى كتاب الأستاذ فتح الله كولن "تعليم العربية بطريقة حديثة".

وتكمن أهمية هذه المستويات الثلاث في كونها العناصر الأساسية لفهم منظور الأستاذ كولن الإصلاحية الشامل، ومقوماته وشروط نجاحه، بما في ذلك مجال التعليم، وبالتالي فإن أي محاولة لفهم مشروعه الدعوي وتجلياته في حقل التعليم خاصة، لا يمكن إنجازها بمعزل عن إدراك تلك الأضلاع الثلاثة لمنظومة التغيير وفق ذلك المنظور، فضلاً عما تضيئه من مساحات الفهم لسر النجاح الذي حققته المؤسسة التعليمية التي أنتجت دعوة الأستاذ كولن على أرض الواقع وهي تعد اليوم جيلاً كاملاً من حياتها، حيث افتتحت أول مؤسسة من هذه المؤسسات وكانت من ضمن مجموعة مدارس "الفتاح" في تركيا سنة ١٩٨٢، سنتين بعد الانقلاب العسكري الذي قاده الجنرال كنعان أفزين سنة ١٩٨٠، فيما كانت قبل هذا التاريخ مجرد أقسام داخلية لطلاب يدرسون في المدارس الحكومية أو الجامعات العامة.

ج: أضلاع مثلث الإصلاح

الإنسان الجديد:

يقدم الأستاذ كولن جملة من السمات التي يتصف بها الإنسان الجديد الذي يبشر به نمطاً موفقاً إلى تحمل أمانة الإنسانية، قادراً على القيام بمسؤولياتها، وبالتالي ركن بناء النموذج الناجح لأي مشروع، فيقول: "سيولد إنسان جديد كل الجدة، إنسان يفكر ويحاسب، ويوازن ويدقق، ويعتمد على التجربة قدر اعتماده على العقل، ويثق ويؤمن بالإلهام والوجدان قدر اهتمامه بالعقل والتجربة؛ إنسان يحاول دوماً بروحه وبدنه الوصول إلى الأفضل، ويرغب في الوصول إلى الكمال والتكامل في كل شيء. إنسان يسمو بالموازنة بين الدنيا والآخرة، ويوفق إلى الجمع بين عقله وقلبه فيصبح نموذجاً جديداً لا مثيل له". وإذ يقدم الأستاذ كولن السمات الذاتية للإنسان الجديد فإنه يبين علاقته بالأنساق الفكرية السائدة وقابليته للاستقلالية والإبداع حين يقول "فكما أن الشرق والغرب لن يستطيعا أسره ووضع السلاسل في قدميه، فكذلك لن تستطيع الأفكار والفلسفات التي تتناقض مع هويته المعنوية وجذوره أن تغير وجهته وتضله في ظلامها عن طريقه، بل لن تستطيع أن تزحزحه عن مكانه قيد أنملة أو أقل من ذلك".

بعد ذلك يبرز الأستاذ كولن الملامح النفسية والعملية التي تكسب النموذج الإنساني الذي يبشر به ويدعو إلى أسباب النجاح، وهي السمات التي تجمع بين التوازن في أبعاد الإنسان، وسلامة رابطة الانتماء والهوية لديه مع الإيجابية في التعامل مع الحياة، والقدرة على التفاعل الإيجابي الخلاق مع المنجز البشري لصالح الإنسان... مطلق الإنسان، وهو يرسم ملامحه بهذه الصورة:

الإنسان الجديد رجل حر في تفكيره، حر في تصوره، حر في إرادته، وحرية هذه مرتبطة بقدر عبوديته لله ﷻ. ثم إن الإنسان الجديد لا يتشبه بالآخرين ولا يتمثل بهم، بل يحاول جاهداً أن يتزياً بهويته الذاتية ويتزى بمقوماته التاريخية.

الإنسان الجديد ممتلئ بالفكر، ملتهب بعشق البحث، مفعم بالإيمان، قابل للوجدانيات، متشبع بنشوة الروحانية ومعانيها... إنسان يبدي كفاءة من نوع آخر في سبيل بناء عالمه، مستفيداً من إمكانيات عصره إلى أقصى حد، متمسكا بمبادئه وقيمه الذاتية.

الإنسان الجديد، هو إنسان يحمل في قلبه إيمان أجداده الأجلاء، ويفكر تفكير أعلام حضارته العظماء، ويمتلئ مثلهم رغبة في إسماع صوته وإظهار قوة رسالته للبشرية جمعاء.

الإنسان الجديد يستخدم جميع وسائل الاتصالات الحديثة؛ كتباً وجرائد ومجلات، وإذاعة وتلفازاً ومنشورات للولوج إلى القلوب والنفوذ إلى العقول والدخول إلى الأرواح، ويثبت جدارته من خلالها مرة أخرى، بل يسترد مكانته المسلوقة في التوازن العالمي من جديد.

الإنسان الجديد، هو إنسان عميق من حيث جذوره الروحية، متعدد من حيث ما يملكه من كفاءات صالحة للحياة التي يعيش في أحضانها. إنه صاحب القول الفصل في كل الميادين بدءاً من العلم إلى الفن ومن التكنولوجيا إلى الميتافيزيقيا، وصاحب خبرة ومراس في كل ما يخص الإنسان والحياة.

الإنسان الجديد متشبع بحب الوجود كله، حارس للقيم الإنسانية وراصد لها. فهو من جهة يحدد موقعه وينشيء ذاته على أساس الأخلاق والفضيلة التي تجعل

من الإنسان إنساناً مثاليًا، ومن جهة أخرى يحتضن الوجود كله بقلبه الواسع وشفقته الشاملة، ويسعى دائمًا من أجل إسعاد الآخرين.

الإنسان الجديد يملك طاقة بناءً وروحًا مؤسسًا، يتعد عن النمطية بشدة، يعرف كيف يجدد نفسه مع الحفاظ على جوهره، ويعرف كيف يروّض الأحداث فتأتي لأمره طائعة خاضعة... لأن الإنسان الجديد، بطل التوازن بكل ما تعنيه كلمة التوازن؛ فهو يرى أن الأخذ بالأسباب من واجبه، والتسليم للحق تعالى من صميم إيمانه.

الإنسان الجديد فاتح ومكتشف معًا، يغوص كل يوم في أعماق أعماق ذاته... ويلح على طرق الأبواب المكنونة وفتحها في الآفاق والأفئس^(١).
خاصية الدين.. أو مكان قوة الإسلام في عالم اليوم:

في المستوى الثاني من بنائه النظري لمقومات نجاح منظومة الإصلاح الإسلامي في علاقتها بمجال التربية والتعليم، تبدو رؤية الأستاذ كولن للخصوصيات الدافعة لرسالة الإسلام اليوم، والتي تجعل منها -إن أحسن استثمار مكنوناتها الراقية والتعامل معها بمستوى مناسب لذلك الرقي- مفتاحًا لمجالات وآفاق واسعة حتى تبلغ مقصدها في تحقيق الإنسانية بالإجابة على الإشكالات الوجودية التي تواجه الإنسان في عالم اليوم. وأول تلك الخصائص: السمة التجاوزية للإسلام، اعتبارًا لكونه منظومة معرفية تفسيرية مفارقة للزمان والمكان، وبالتالي غير خاضعة لقوانين الصلاحية الخاصة بهما، وذلك بتوضيحه أن "جذور الإسلام لانهاية فوق الزمان والمكان.."، مما يتجلى في قدرة الدين على التفاعل الإيجابي مع حاجات الإنسان ومتطلباته، ومن هنا تأكيده " أن الإسلام منفتح على اقتباس ما يمكن اقتباسه من قيم الأمم الأخرى؛ فالإسلام يبحث عن كل فائدة ومصلحة حتى وإن كانت في أقصى بقاع الأرض، ويطلبها أنى يجدها. وكما اقتبس في الماضي من علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك والهندسة والطب والزراعة والصناعة والتقنيات الأخرى أينما وجدها، ثم قومها وطورها وأودعها أمانة للأجيال الآتية، فاليوم أيضًا يأخذ كل ما يمكن أخذه أينما

(١) الإنسان الجديد، فتح الله كولن، المقال الرئيس مجلة حراء العدد: ١١ (أبريل - يونيو) ٢٠٠٨.

وجده، وينميه ويطوره - إن استطاع - ويؤدعه أمانة للوارثين الجدد".

أما الجانب الآخر من خصائص الإسلام في راهنه كما يرى الأستاذ كولن فهو الذي يتجلى في فعاليته التكاملية، أي الارتباط الشرطي والتبادلي بين تكامل عناصر الإسلام وبين تحقيق فعاليته المقاصدية، لأن الإسلام كما يقول "إيمان، وعبادة، وأخلاق، ونظام يرفع القيم الإنسانية إلى الأعلى، وفكر، وعلم، وفن. وهو يتناول الحياة كلاً متكاملًا، فيفسرها، ويقومها بقيمه. وهو يفسر أداء الحياة دومًا ممتزجًا مع الواقع، ولا ينادي البتة بأحكامه في وديان الخيال بمعزل عن الحياة. يربط أحكامه وأوامره بمعطيات الحياة المعيشة وبإمكانية التطبيق، ولا يبني الأحكام في دنيا الأحلام. الإسلام متواجد وحركي في الحياة بكل مساحاتها، من المعتقدات إلى أنشطة الفن والثقافة... وذلك هو أهم الأمارات والأسس لحيويته وعالميته الأبدية"^(١).

خاصية العصر.. أو القرن الواعد:

ثالث أضلاع المثلث في رؤية الأستاذ كولن لأسس فعالية الإصلاح الإسلامي وخاصة من خلال منظومته التربوية هو ذلك المتصل بخصائص العصر الذي نعيشه، والذي إن كان يفرض على رسالة الإسلام أسئلة وتحديات جديدة مطالبًا بتقديم الأجوبة والحلول لها، فهو في الوقت نفسه يمثل مجالاً خصبًا ومناسبًا، يفتح أمام تلك الرسالة آفاقًا أرحب، وذلك بالنظر أولاً إلى ما مر على مجتمعات عالم المسلمين من تحديات أخطر في القرن الماضي استطاعت معها لا أن تصمد فحسب، بل أن تبقي على فعاليتها الروحية والثقافية لإعادة بناء نموذجها في النهضة الحضارية، يقول: "لقد كان القرن الثامن عشر، بالنسبة لعالمنا، قرن التقليد الأعمى والمبتعدين عن جوهرهم وكيانهم؛ وكان القرن التاسع عشر، قرن الذين انجرفوا خلف شتى أنواع الفاتناتيات واصطدموا بماضيهم ومقوماتهم التاريخية؛ والقرن العشرون، كان قرن المغتربين عن أنفسهم كلياً والمنكرين لذواتهم وهويتهم، قرن الذين ظلوا يُتَقَبَّونَ عن مَنْ يرشدهم وينير لهم الطريق في عالمٍ غير عالمهم. ولكن جميع الأمارات والعلامات التي تلوح

(١) الخصوصيات الأساسية للفكر الإسلامي، مرجع سابق.

في الأفق تبشر بأن القرن الواحد والعشرين، سيكون قرن الإيمان والمؤمنين، وعصر انبعاثنا ونهضتنا من جديد".^(١)

ومن هنا دعوته تنظيراً وممارسة إلى معانقة العصر بأسئلته وفرصه، وإيمانه بقابلية هذا النموذج للحياة والتطبيق في هذا العصر، وخاصة من خلال بيئة التربية والتعليم.

٢. حقل التعليم

أ. الرؤية المعرفية المؤسسة

إذا أمكننا، انطلاقاً من الرؤية المعرفية للمشروع الإصلاحية للأستاذ فتح الله كولن، أن نرصد ملامح النموذج المنشود في مستويات الاجتماع الإنساني، فإنه وانطلاقاً من الخبرة العملية الطويلة للمؤسسة التعليمية التي تمثل ذلك المشروع، وما راكمته من تجارب، يمكننا تعرّف الخصائص العامة لهذه المؤسسة وكيف استطاعت في مساحات نجاحها أن تترجم الفكرة إلى واقع حي، والفكرة التي تنطلق منها المدرسة وفق هذا النموذج يمكن اختصارها في سمات ثلاث:

مدرسة فكرية أصيلة ذات منهج فكري وعلمي ونظرة إلى مختلف العلوم من منظور القرآن والسنة، بنظرة تواكب العصر وتنطلق منه؛ وهو أمر يتجلى كأوضح ما يكون في النشاط التربوي والتعليمي داخل تلك المدارس، المنضبط لنظرة تراوح بين تكوين العقل وتربية القلب، أي بعدي العلم والخلق في مسارين متوازيين، لا أحد هذين الجانبين على حساب الآخر، وتقديم نظام تربوي يقدمهما معاً في تعليم يغذي الفكر، ممزوجاً بتربية تقوّم السلوك تكون الكلمة العليا فيها للنموذج الصالح، أي التربية بالقدوة أو "لسان الحال".

نظام تربوي يراعي ما يسميه الأستاذ كولن بالأوامر الشرعية والأوامر الكونية (القانونين معاً)، ويتجنب الصدام بين العلم والدين أو التناقض المفتعل بينهما، المتأثر بالتجربة المريرة من الصراع بين البعدين باعتبارهما مجالين مختلفين وذلك في تجربة الغرب الحديث حيث "إن فلسفة العلم في أوروبا -وعلى نقيض المرونة في عالمناء الفكري- قد

(١) الإنسان الجديد، مرجع سابق.

أوقعت الغرب كله في صراع دائم بين العلم والدين لأمر وأوضاع خصوصية، فخلف ذلك انفصلاً بين العقل والقلب. هذا المشكل هو السبب الرئيس للمعضلات المتتابة منذ عصور في النظم الغربية كلها. بل لقد تفاقمت الأزمة من مخاصمة جبهة العلم والفلسفة للدوغماتيات الكنسية، إلى مخاصمة "المفاهيم" الدينية كافة بمرور الزمان^(١). فالتألف بين العلوم التجريبية والعلوم الشرعية عنده هو سر انبلاج الحقيقة العلمية في حقولها الإنسانية والاجتماعية، بل حتى في مجالات العلوم التطبيقية والحقة.

الإستفادة من المنجز الإنساني العلمي والتقني في أقصى مستوياته، انطلاقاً من رؤية ترى أن شرطي وراثته الأرض هما الصلاحية والصلاح أي التخصص والمهارة والنموذج المسلكي، ومن هنا غياب الذوات الفردية إلى أبعد الحدود، حيث الأولوية في نجاح المشروع التعليمي ليست للإنجاز الفردي بل للإنجاز المؤسسي والتوفيق الجماعي (الشخص المعنوي).

وانطلاقاً من هذه السمات الأساسية، يتم استهداف تحقيق تعليم جيد بأهداف دقيقة، وتلقي القيم الأساسية للإنسان المسلم والحرص على الأنشطة الموازية، وذلك في مؤسسات تمارس جودة التربية والتعليم، من خلال منظومة هدفها الرقي به؛ وحيث يتم استخدام التقنيات الحديثة والتجربة المخبرية في عمليات التدريس وأقسام اللغات المتخصصة، مع الاهتمام بالتلاميذ ذوي المستوى الخاص (الأقسام الخاصة) وهو أمر تُرى نتائجه في نسب الترشح للمسابقات الدولية الخاصة بالرياضيات والفيزياء والبيولوجيا والمعلومات من طلاب هذه المدارس، وعدد مسابقات المشاريع التطبيقية في العلوم التي يدخلونها.

ب. مسيرة المدارس "التركية"

بعد مسيرة تمتد اليوم ما يزيد عن ربع قرن عرفت خلاله هذه المدارس انتشاراً على امتداد التراب التركي من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، أصبح التعليم الذي نشأ بتأثير من دعوة الأستاذ فتح الله كولن ظاهرة متميزة بمستواها وانتشارها، حيث

(١) الخصوصيات الأساسية للفكر الإسلامي، مرجع سابق.

يبلغ عدد مدارس الفاتح الآن مثلاً ٢٧٠ مدرسة ابتدائية وثانوية و٧٧ روضة من رياض أطفال، وهو انتشار قد تبدو معه ميزة منطقة مرمره (التي تشمل مدينة إسطنبول) من حيث البنيات التحتية والتحضير، أما من حيث العنصر البشري من معلمين ومسؤولين فليس ثمة ميزة لمنطقة معينة، وذلك بسبب حركة انتقال المدرسين بين المدارس على امتداد البلاد، وهي حركة لا تترك مجالاً لتقدم منطقة على حساب أخرى. إضافة إلى مناهج التعليم الموحدة حسب برنامج وزارة التربية والتعليم التركية، مع الحرص على تبادل دائم للخبرات بين المدارس في مختلف المناطق.

واللافت أن هذه المؤسسات قد تخطت بالفعل الإشكالية الأساسية التي يعاني منها هذا النوع من التعليم في كثير من المناطق داخل أو خارج عالم المسلمين، تلك هي إشكالية ضمان تمويل دائم ومستقر يسمح لعملها بأن يتطور ويرقى بعيداً عن الإكراهات والتهديدات بالتوقف أو التعثر، ويرجع العامل الأساسي لهذا النجاح في حركة البذل الواسعة التي أطلقتها دعوة الأستاذ كولن، والتي تدفع الموسرين ورجال الأعمال إلى بناء هذه المدارس كلياً أو جزئياً، أو التكفل بمدرسة منها في بلد ما خارج تركيا، غير أن دور هذا النوع من التمويل نفسه أصبح جزئياً، بعد أن استطاعت كثير من هذه المؤسسات أن تدير نفسها بطريقة اقتصادية فعالة من جهة، وبعد أن تم إنشاء مؤسسات هي بمثابة الإطار الموازي لمؤسسات التعليم، تتكفل بالتمويل الاقتصادي لإنشاء وإدارة مؤسسات أخرى، كمؤسسات الطباعة مثلاً، والمختصة منها في طباعة الكتاب المدرسي خاصة، كما سيلبي في الصفحات التالية.

وتمثل المعاهد التحضيرية للجامعة جزءاً مهماً من مجال العمل التعليمي لهذه المؤسسات؛ وقد بدأ العمل بنظام المعاهد التحضيرية (معاهد التوجيه) في تركيا عام ١٩٧٣ وهو نظام شامل لكافة الطلاب المرشحين للانتحاق بالتعليم العالي في الجامعات والمعاهد العليا، والذين يقدر عددهم بمئات الآلاف كل عام، حيث بلغ عدد المترشحين حسب إحصاءات سنة (٢٠٠٩/٢٠١٠) ما يقارب ١,٥ مليون طالب.^(١)

(١) حسب الإحصائيات الحكومية الرسمية فإن مجموع المرشحين لهذه السنة بلغ ١,٤٥١,٣٥٠ مرشحاً.

وكان لهذه المعاهد دور أساسي في منظومة التعليم التركية الناتجة عن دعوة الأستاذ كولن، وذلك لخصائص هذه المعاهد، والمرحلة التي تمثلها بالنسبة للطالب وأسرته، سواء من حيث أهميتها الحاسمة في توجيه مستقبله العلمي والعملية وبالتالي احتياجه خلالها للدعم والتوجيه والمواكبة، أو لإقبال العائلات خلالها على مساعدة أبنائها والاستعانة والترحيب بأي جهة تساعد على تحقيق هذا الهدف. وتتيح المعاهد التحضيرية بسبب نظام دراستها المكثف (تحضيرية)، والمستمر (داخلية) تواصلًا واحتكاكًا أكبر بين الطلاب، وقدرة أعلى على التأثير في بعضهم البعض (الصحة).

وهنا تأتي أهمية الأدوار التي تقوم بها تلك المؤسسات التي تواكب هذه المرحلة من الحياة التعليمية للطالب، ففتح له دروسًا إضافية للدعم مجانًا، وهي بسبب وجودها في مناطق متعددة داخل المدن (يوجد لمعهد (فام Fem)^(١) مثلًا وهو معهد تحضيرية للجامعة ٤٤ فرعًا في إسطنبول، وحوالي ١٣٠ فرعًا في مجموع تركيا) تتيح للطلاب شبكة واسعة من مؤسسات الدعم التعليمي والتربوي على السواء، كما تمثل كثير منها بيئة علمية وأخلاقية للتواصل بين الطلاب. وهو ما يتضح بجلاء حين نعرف أن نسبة نجاح الطلاب خريجي هذه المدارس في امتحانات الدخول إلى الجامعة هو ضعف معدل النجاح في المدارس الأخرى.

ج. من المحلية إلى العالمية

بدأ فتح المدارس في دول أخرى خارج تركيا منذ بداية التسعينيات، حيث تأسست أول المدارس خارج البلاد سنة ١٩٩١ وذلك في آسيا الوسطى إثر انهيار الاتحاد السوفياتي، فيما كانت التجربة قد بدأت قبل ذلك بسنوات داخل تركيا. ففي صيف عام ١٩٩٠ وجه الأستاذ فتح الله كولن دعوته التاريخية إلى الشعب التركي من على كرسي الوعظ في المساجد السلطانية داعيًا إياه "إلى نجدة إخوانه في الدم والدين، الذين خرجوا من الاستعمار (الروسي) قبل أن يدخلوا تحت سيطرة استعمار ثان"، وبأثر من تلك الدعوة استضاف الشعب التركي في تلك السنة ما يناهز الثلاثين ألف عائلة من

(١) اختصار لاسم معهد فرات التربوي Firat Education Merkezi

آسيا الوسطى، وهو ما أعطى المدارس فيما بعد قاعدة شعبية من كل الناس بعد موجة التعاطف والانخراط الشعبي في تلك المبادرة حينها.

إثر ذلك بدأت الدعوة إلى تحويل العلاقات مع الشعوب المسلمة في آسيا الوسطى من أبناء الجمهوريات الإسلامية الخارجة من حكم الاتحاد السوفياتي إلى علاقات ملموسة عبر استقدام الطلاب من آسيا الوسطى، والاهتمام بهم وبدراساتهم وعودتهم إلى بلادهم، ثم لما تعذر ذلك بسبب الأوضاع الإدارية والعامة في البلاد، دعي الأستاذ كولن إلى فتح طريق آخر (كتجول لطبيعة تفكيره العملية والإيجابية) إلى فتح المدارس في تلك البلاد. التي انتشرت فيها هذه المدارس، بل أصبحت تحتل فيها مكانة متميزة، ومنها انتشرت الفكرة إلى جميع أنحاء العالم؛ فباستثناء دول قليلة لازالت تمنع فتح هذه المدارس مثل إيران وكوريا الشمالية والصين، فإن هذه المؤسسات أصبحت موجودة اليوم في أكثر بلدان العالم من القارات الخمس. وهذه المدارس هي على ثلاثة أنواع:

١. مدارس حكومية عامة، وتوجد على الخصوص في آسيا وروسيا.

٢. مدارس خاصة (أهلية) خاصة في أفريقيا والباسيفيك وتركيا والبلقان، غير أن العائد المادي لهذه المدارس الخاصة لا يخرج من البلدان التي توجد بها، بل يوجه للتمويل والتطوير الذاتي لمؤسسات التعليم بتلك البلاد.

٣. مدارس مشتركة (بين القطاعين) وتتركز خاصة في آسيا. هذا فضلاً عن أنواع أخرى من المدارس، كالمدراس الدولية التي توجه خدماتها لأبناء الدبلوماسيين والمقيمين من دول أخرى، ومدارس العلوم، ومدارس الاقتصاد، ومدارس المعلومات، ومدارس اللغات. وتوجد مدارس من هذه الأصناف الثلاث في حوالي ١٠٠ دولة عبر العالم.

ويتكون الإطار البشري لهذه المدارس من مربين وإداريين من خريجي هذه المدارس نفسها في مختلف البلدان، كما أن هناك طلاباً من حوالي ٨٠ دولة يدرسون في تركيا يمثلون الرصيد الثاني للمعلمين في هذه المدارس. بالإضافة إلى عملية إرسال المعلم الخريج إلى بلد ثالث غير تركيا وبلد دراسته بقصد اكتساب المزيد من الخبرة وتخطي الحاجة المستمرة للمعلم التركي.

ويمكن للباحث أن يرصد التطوع باستمرار في هذه الشبكة الواسعة من المدارس إلى أن تكون المدرسة محلية ما أمكن، ففي بلدان كقيرغيزيا وتركمنستان مثلاً نجد أن كل مدرء المدارس من أبناء البلدين، وأغلبهم من خريجي المدارس، حيث أصبحت هذه المدارس تقوم بإمداد نفسها ذاتياً بالكادر التعليمي والإداري.

كما تظهر تبيئة تجارب المدارس في إعطاء الأولوية في التكوين اللغوي للغة المحلية في أي بلد، بحيث تكون العربية مثلاً أو اليابانية، أو الروسية، أهم درس في البرنامج الدراسي المحلي للمدارس داخل البلد. ولعل ذلك هو ما يفسر التسمية التي أصبحت تطلق على أغلب هذه المدارس حيث تسمى مثلاً المدارس الأفغانية، التركية، أو المدارس البوسنية التركية.

٣. التعليم: أسباب النجاح لا أسرارها

أصبحت شبكة المدارس الواسعة التي أنشأها طلاب الأستاذ كولن في مختلف أنحاء العالم تحقق نتائج عالية من مستويات التكوين والمردودية التربوية، وتبعاً لذلك أصبحت السمعة العلمية لبعض هذه المؤسسات تضاهي في سمعتها الأكاديمية بعضاً من أعرق المؤسسات التعليمية في العالم، وإذا كان هذا الأمر مفهوماً في بعض الدول النامية من العالم الثالث (تم في سنة ٢٠٠٧ فتح مدرسة في ليبيريا وفي السنة الثانية أصبحت أحسن مدرسة في البلد)، نتيجة لحمل خبرات في التعليم من مختلف دول العالم إلى البلد، فإن الأمر لم يختلف كثيراً في دول معروفة بسعة تجربتها في مجال التعليم بما في ذلك تركيا نفسها، المعروفة بجودة بعض مؤسسات التعليم فيها بشكل عام.^(١)

وحين تتم دراسة تجربة هذه المدارس عن قرب فإن أهم الخلاصات التي يخرج بها الباحث أن لهذا النجاح أسباباً لا أسراراً، بمعنى أن هذا النجاح فضلاً عن النموذج الإنساني المتميز، والمجتمع العريق والحي الذي يقف وراءه داعماً بجهد واستماتة منقطعة النظر، فهو نجاح مستحق لجهد من الإعداد الفني والاستعانة بكل ما قد يساعد عليه من أسباب ووسائل وخبرات وتجارب، سواء منها ما تعلق بالمستوى المادي من حيث

(١) يراجع حول الموضوع بعض تقارير تصنيف مستويات جودة التعليم في العالم مثل : OECD Report .

البناء والتجهيز، أو ما يتصل بالكوادر البشرية التربوية والإدارية، وخاصة معايير الاختيار ومسارات التكوين المستمر للمدرس، أو متطلبات العملية التعليمية من وسائل ومناهج. وتحدد هذه النوعية من المدارس جملة من الأهداف الحاكمة لعملها، وهذه الأهداف الثمانية المعلنة والمسطرة، أي ما يسمى بالأهداف التربوية العامة للمدرسة هي:

تلقين الطالب مواد التعليم بالشكل والمستوى المطلوب (جودة الجانب الأكاديمي).

تهيئة الطلاب ذوي المواهب الخاصة بما يناسب كفاءاتهم واستعداداتهم، حيث انتقلت هذه المدارس كما هو الحال في تركيا مثلاً من التنافس في أولمبياد مسابقات الرياضيات مع غيرها إلى التنافس فيما بينها.

استهداف أن تكون عند الطالب خريج المرحلة الابتدائية على الأقل هويتان لتغطية وشغل أوقات الفراغ، من خلال الأنشطة الموازية (نوادي الهوايات الثقافية في الجانب الثقافي، إضافة إلى الأنشطة الرياضية).^(١)

تأهيل قدرات الطلاب على استخدام تكنولوجيا المعلومات.

تنمية تعلم اللغات الأجنبية عند الطالب (على الأقل لغة أجنبية واحدة).

العناية بالجانب الخلقى من العملية التربوية (المستوى العالي من الآداب والسلوك).

تنمية مستوى اللغة المحلية (التركية، الإنجليزية، العربية..).

تنمية مستوى الوعي التاريخي للطلاب، بهدف أن يصير الطالب طرفاً متفاعلاً مع تاريخه وبالتالي مع واقعه.

وإذا أردنا أن نجمل أسباب نجاح هذه المدارس، أمكننا ذلك من خلال ثلاثة عناصر:

أولاً: المدرس أو المعلم، حيث الأستاذ الذي يمتن التعليم كعشق وهواية؛ ولذلك يكون الإقبال على العمل في هذه المؤسسات بالتطوع والاختيار، ويمكن إدراك قيمة

^(١) في زيارتي لإحدى هذه المدارس في إسطنبول وفتت على مستوى الملاعب والتجهيزات الرياضية في المدرسة، حيث ملعب التزلج مستخدم بالكامل من الولايات المتحدة، وملعب كرة اليد معد بنظام تهوية خاص بممارسة الرياضة.

هذا الجانب حين يتعلق الأمر بالعمل بالمدارس في بعض البيئات شديدة الصعوبة كالعراق وأفغانستان التي توجد بها مدارس عاملة، كما يبدأ فتح المدارس عادة في المناطق النائية من البلد، ويكون لهذا الأمر تأثير لافت على مستوى عطاء الأستاذ وتواصله مع الطلاب، إذ لا سأم من أسئلتهم وتطلعاتهم للمعرفة، وبالتالي فالأستاذ يملك الحد الأدنى -ضمنًا- من المقدرة على تحقيق الأهداف التربوية العامة على أرض الواقع تطبيقياً.

ولعل القيم التي يتربى عليها طلاب الأستاذ كولن ممن يتجهون إلى مهن المعلمين والأساتذة، ويتعلمونها في مجالسه وعبر كتبه من قبيل المحبة للناس جميعاً، ومساعدة الغير، وربط علاقات طيبة مع الجميع ما أمكن، تفسر جانباً مهماً من هذه السمة التي يشترك فيها أكثر معلمي هذه المدارس، يساعد على ذلك القرب الشديد من الطلاب حيث إن التعليم في أغلبه يكون بالنظام الداخلي (أقسام داخلية)، باستثناء الأقسام الأساسية، وأقسام التكوين الخاص والمستمر.

غير أن هذا الاستعداد النفسي أو الخلقى لدى الأستاذ يواكب بالتكوين والتقييم المستمرين، فكل الأساتذة في هذه المؤسسات يحضرون على الأقل مؤتمرين سنويين لصالح الأساتذة خلال الفصلين، بالإضافة إلى ورشات العمل واللقاءات المستمرة الخاصة بالأساتذة (سنوياً مرة أو مرتين على مستوى كل دولة)، ما يسهم في تطوير التكوين الأكاديمي بين الأساتذة.

وعلى مستوى أساتذة كل تخصص على حدة يأتي "نظام الزمر" من خلال الاجتماعات المستمرة للمعلمين في المادة، والمدراء، ويمتاز هذا النظام بهيكلية على مستوى فروع المدرسة وهكذا، إذ يجتمع الأساتذة المتخصصون في المادة على مستوى المدرسة اجتماعاً أسبوعياً، مما يجعل المعلم غير مكتف بتكوينه الأكاديمي وخبراته الشخصية، إذ يسمح له "نظام الزمر" بالترقي باستمرار بناء على الخبرات المكتسبة، كما يتيح هذا النظام تبادل التجارب بين المعلمين الجدد والقدامى ما يشكل واحداً من أهم أسباب نجاح المعلم في أداء مهماته التربوية، كما يركز لديه الخبرة في وقت وجيز.

وتشمل لقاءات الزمر تقنيات التدريس، والدروس النموذجية التطبيقية، وخبرات التلقين والتحكم، ومهارات المدرس...، من أجل تحقيق الأهداف التربوية العامة، وتواصل أكثر فعالية مع الطلاب (التعليم الفعال).

ثانيًا: المناهج والمواد التعليمية، إذ تعتبر جودة الكتاب المدرسي سمة أساسية من سمات العمل بهذه المدارس، ويرجع ذلك إلى الخبرات الواسعة التي تمت مراكمتها على هذا المستوى، إذ تتجدد الكتب الدراسية بالاعتماد على آراء المعلمين والمربين وتقييمهم لها، وفق نظام التأليف الجماعي عبر الاستفادة من آراء كل أساتذة المدارس على مستوى العالم (بما في ذلك بعض الخبراء من معاهد عريقة بأكسفورد مثلاً...).

ويتم الالتزام في المقررات المحلية بالمقررات الخاصة بكل بلد، بحيث يتم توزيع الكتب المطبوعة على مجزوءات ليتمكن الانتقاء منها حسب ما تفرضه المقررات المحلية، وحسب ما يقبل في بلد ما، واستبعاد ما لا يُقبل. إضافة إلى طباعة كتب خاصة بالبلاد أو استخدام الكتب الدولية المقبولة لدى الدولة من دول ذات خبرة في الموضوع التعليمي.

وهكذا تم نقل خبرة طباعة الكتب المدرسية من تركيا إلى دول أخرى في آسيا الوسطى وروسيا وألبانيا والبوسنة والهرسك وشرق أوروبا.

وتعد مؤسسات طباعة الكتاب المدرسي من أهم المؤسسات التي تمول المدارس اقتصادياً، فهي إطار مواز لمنظومة التعليم. وعلى سبيل المثال فإن شركة (Surat) للنشر والطباعة والتي يعمل بها ٨٢ مؤلفاً من المعلمين الذين تدرّبوا في هذه المدارس، بالإضافة إلى معلمين متعاونين من خارج تركيا تقدم خدماتها في طباعة الكتاب التعليمي لصالح ٨ جهات بما فيها وزارة التعليم التركية، وقد قامت إلى لسنة ٢٠٠٩ بطباعة ما يناهز خمس الملايين من نسخ الكتب المدرسية لصالح الدولة فقط (١٧ كتاباً معتمداً و٢٤ معداً)، فضلاً عن بعض المؤسسات الأخرى مثل (Güven) (الثقة)، زمبق، جوشكو، وغيرها.

وتتضمن الكتب المطبوعة في المناهج الدراسية القيم التي تحملها هذه الفكرة الإصلاحية في مختلف التخصصات العلمية.

ثالثاً: نظام التقييم المستمر، ويسمح هذا النظام الموجه المتعلق بتحصيل التلميذ وأداء الأستاذ برصد دقيق لمستويات التعلم، واكتشاف مكامن الضعف وتقويمه بصورة دورية ومنتظمة، حيث هنالك كشف تعيين المستوى (SBS)، وامتحان التحصيل الأسبوعي (HKS) وهو نظام تقويم لتحصيل الطلاب في مستوى عال من الدقة، يقدم حصيلة أسبوعية توجه للأولياء؛ وفي هذا السياق تبدو لافتة علاقة المدرسة بالأسرة من خلال استدعاء الأولياء للمدرسة والتعرف عليهم والتعاون معهم.

ويعتبر تقويم التحصيل العلمي للطلاب، وبالتالي حصيلة عمل الأستاذ، بشكل دائم (أسبوعي) عنصراً آخر مهماً من عناصر النجاح، وفق نظام يشارك فيه: المدير، ومساعد المدير للشؤون التعليمية، ومساعد المدير للشؤون التربوية، ورؤساء الزمر داخل المدرسة.

والخلاصة أنه إذا كان التعليم اليوم يعد تحدياً شديداً الأهمية يواجه المجتمعات الإسلامية عامة، بوصفه سباحة في المجال الحيوي بأبعاده الثلاثة: مجال العقول والأنفس التي يتم من خلالها بناء الإنسان... مركز الوجود، ومجال الجغرافيا السياسية للبلاد والمجتمعات المسلمة كل على حدة، حيث يكون دور كل منها وتأثيرها أكثر أهمية وإلحاحاً (كما هو الحال مع آسيا الوسطى بالنسبة لتركيا مثلاً)، ومجال التواصل الإنساني العام حيث القيام بمهام الشهود الحضاري لعالم المسلمين على الإنسانية في عصره، وتصحيح الصورة النمطية المشوهة عن الإسلام ومؤسساته وبرامجه التعليمية، فإن هذه السباحة لا تكون فعالة إلا بمستوى الاحتراف، المطلوب لزوماً للتعامل مع التحديات الماثلة، رؤية وخبرات، فكرياً وتطبيقاً، ومع الأسئلة التي يلح عالم اليوم في طرحها والتماس أجوبتها، وفي حسن تقديم الجواب بحكمة وروية، وهنا تأتي أهمية هذه الخبرات المتركمة لتجارب الإصلاح في كافة أرجاء عالم المسلمين، والأهم من ذلك قراءتها بعين فاحصة للإفادة منها في كل مجال متاح.



مفهوم التربية الشمولية لكون وانعكاسه على المدارس

أ.د. رجب قايماقجان⁽¹⁾

مع انتهاء فترة الحرب الباردة حدثت تغيرات جذرية في مختلف المجالات على الصعيد العالمي. ويمكن القول إن تأثير العولمة قد ازداد زيادة كبيرة مع التطورات السريعة في تكنولوجيا المعلومات اعتباراً من تسعينيات القرن الماضي. وإذا كان الاقتصاد هو المجال الأكثر تأثراً بالعولمة فإن هذا لا يعني أنها لم تؤثر على المجالات الأخرى. وإنها لحقيقة واقعة أن تكون حقوق الإنسان والديمقراطية هما الخطاب الأكثر تأثيراً على الصعيد الدولي في هذه الفترة. ومن الممكن رؤية تأثير هذا الخطاب الجديد على المجالات المختلفة. وأحد هذه المجالات هو مجال التعليم.

لا يمكن أن يُقال إن مفهوم التعليم الإلزامي والتعليم للجميع الذي تشكل مع الدولة القومية الحديثة هو نشاط بعيد عن التقييم. إن تنشئة المواطن المناسب للدولة القومية كان أحد الأهداف الأساسية للتعليم. ومع العهد الجديد حدثت تغيرات جوهرية في فلسفة التعليم. والآن أصبحت تنشئة الأفراد الذين يتبنون القيم الديمقراطية وحقوق الإنسان إحدى الأهداف الأساسية للتعليم في المدارس. وبعبارة أخرى فقد برز في التعليم مفهوم المواطنة الديمقراطية. ومثل كل تغيير مهم فإنه عقب فترة الحرب الباردة التي انتهت بانهيار جدار برلين كانت الأجواء تتخللها المخاطر والفرص.

وعموماً فإن الفكرة السائدة هي أن هذه النوعية من التغيرات الجوهرية والعولمة (تأتي لصالح الدول والشعوب القوية اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً... إلخ. إن أحد طرق تحويل التغير الجذري الحديث إلى فرصة وليس إلى مخاطرة بالنسبة إلى الدول ومنظمات المجتمع المدني والأفراد، هو قراءة روح التغيير ومعناه قراءة جيدة وإعادة صياغته.

⁽¹⁾ عضو هيئة التدريس بجامعة سقاريا، كلية الإلهيات، قسم التربية الدينية، تركيا
e-mail: receb@sakarya.edu.tr web: www.recepk.sakarya.edu.tr

وعلى حين أن هذه البيئة كانت تتضمن فرصاً جديدة بالنسبة لمن استوعبوا جيداً التغيير وروح العصر كانت في الوقت ذاته تشتمل على مخاطر بالنسبة للمناهضين لهذا التغيير. ومن هذا المنطلق يمكننا القول إن حركة كونن أو جماعته في تركيا تأتي في المقدمة في تحويل التغيير إلى فرصة بالنسبة لمنظمات المجتمع المدني الأخرى. أما المجال الأكثر فعالية في استفادة حركة كونن من الإمكانيات التي أتت بها العولمة فهو "التربية". كان واضحاً تأثير الأهمية التي أعطتها جماعة كونن للتعليم المدرسي الجيد بصفة خاصة في إطار قراءة روح العصر قراءة جيدة وتحويل التغيير إلى فرصة. وبالتالي يمكن أن يُطلق على هذه الحركة أنها "حركة تربوية".

ولا يمكن الاعتقاد بأن مؤسس حركة كونن المعروف باهتمامه بالتربية ليست له وجهات نظر وتقييمات تتعلق بالتربية. فالمقترحات التي طرحها كونن والانتقادات التي وجهها لنظام التعليم القائم من الممكن أن تُحلل من زوايا مختلفة. لكن في حدود هذا البحث وفي إطار ما كتبه، سوف يتم تحليل رؤيته التي تأخذ في الاعتبار تناول الإنسان من خلال تكامل القلب والعقل، وهو ما يُعد أحد العناصر الرئيسة المكوّنة لأساس فهمه للتربية. وعلاوة على ذلك فسوف يتم توضيح القول الذي يشير إلى التشابه بين مفهوم التربية لدى كونن ومفهوم "التربية الشمولية" من وجهات النظر التربوية الموجودة في وقتنا الحاضر. وبعد ذلك سيتم تقييم كيفية انعكاس مفهوم التربية الشمولية لكونن على المدارس الموجودة داخل تركيا وخارجها والتي تُعد من العبارات الملموسة لمفهوم التربية لدى الحركة، كما تُعد وسيلة في نشأة "الجيل الذهبي" بتعبير كونن.

مفهوم التربية لدى كونن: الرؤية الشمولية

يرى فتح الله كونن أن مشكلة التربية هي أعظم مشكلة جوهرية في العالم الحديث وليس في تركيا فحسب. ويرى أن أساس أزمة المجتمع الحديث هو تمزق روابط التكامل بين العقل والقلب في التربية والفكر العلمي. ويقول إن الفكر العلمي الحديث والنظام التعليمي قطع الرابطة بين جميع العلاقات الإنسانية والاجتماعية والفكرية وبين المقدسات بطريقة وضعية منذ عدة عصور. ومن ثم فهما يمثلان لدى الأستاذ المصادر

المهمة للأزمات الأخلاقية والمعنوية والفكرية التي تتعرض لها المجتمعات الحالية. كما يرى كولن أن الحل لهذه المشكلة يكمن في تحقيق التكامل بين العقل والقلب في التربية بالنظر بشمولية إلى العلاقة بين الإنسان والكون والله.

وأحد المحاور الأساسية لفلسفة كولن التربوية هو انتقاد مفهوم التربية المُجزّئ الذي أفرزته الحداثة والذي كان السبب في الأزمة كما كان السبب في اغتراب الإنسان عن ذاته. ينتقد كولن في أحاديثه وكتاباته من زوايا مختلفة مفاهيم التربية المعقّدة التي تُهمل الأبعاد المعنوية مسلطة الضوء على التطور العقلي الإنساني. تقدم هذه الانتقادات أفكاراً فيما يتعلق بنوعية التربية التي يجب وجودها داخل المدارس وخارجها في نفس الوقت. ووفقاً لكولن فإن الطريقة المجزئة الحديثة في النظر إلى الإنسان والتربية تتلخص أساساً في مجالين. الأول: عدم النظر إلى تطور الإنسان وتربيته من خلال تكامل القلب والعقل، الثاني: التقييم الموجود في إطار مفهوم المدرسة الدينية والمدرسة المدنية كانعكاس مؤسسي لمشكلة التربية.

تكامل القلب والعقل

يعتبر كولن بأن شخصية الإنسان تتكون من العناصر الجسمانية والذهنية والروحية. ويجب أن تتحقق كافة الإمكانيات الإنسانية بشكل منظم، وإنه يعتقد أن هذا التطور سوف يتم من خلال التربية. يضع فكرته هذه في محور الفهم التربوي والإنساني. ويرى أن التربية الشمولية تعد بمثابة حجر الأساس لتنشئة "الجيل الذهبي" على حد قوله. يعبر عن فكرته هذه بـ"تكامل القلب والعقل". ومن الممكن أن نرى في تعريف التربية تأكيد كولن على الشمولية في تربية الإنسان والأهمية التي أعطاها للبعد الروحي في التربية بصفة خاصة. يعرف التربية كالتالي:

إن التربية تحد من التأثير الطاعغي لهذه النوعية من الأحاسيس التي استقرت بالطبيعة البشرية لتحقيق مقاصد وأهداف معينة، وتكشف الطرق الموصلة إلى الكمال أمام هذه الأحاسيس التي تبدو وكأنها ضارة، وذلك بتوجيهها إلى كل ما هو جميل وطيب،

وتعمل على تقوية شعور الفضيلة وقوة الإرادة والقدرة على التفكير وحب الحرية لدى الفرد. حب الحرية يعني العبودية لله.

يعزو كونن مفهوم التربية الشمولية إلى المرجعيات الإسلامية. يعلق في هذا الإطار تعليقاً غريباً على صفة الفطنة التي يتصف بها سيدنا محمد ﷺ. ويبين أن النبي ﷺ كان يعمل بهدوء وحنكة وهو يبلغ الناس الرسائل التي تلقاها من ربه ﷻ. يعبر عن نظرتة الشمولية في تأدية النبي لمهمة التبليغ بقوله:

"إن النبي ﷺ قد شمل الناس جميعهم، وبلغ الرسائل التي جاء بها عن ربه في ضوء هذه الشمولية. من أجل هذا أيضاً لم يغفل مطلقاً أي إحساس أو شعور أو قلب أو فؤاد أو منطق أو عقل عند أدائه لهذه المهمة العظيمة. ولم تستثن من ذلك الجوانب المضيئة للوحي وضرورة إقامة علاقة بين العالم الداخلي للإنسان والأشياء والأحداث".

ويوضح هذا المنطق أنه عندما يحلل أمراً ما يجمع بين الروح والقلب والحس واللطائف. ويدافع عن ضرورة أن يكون كل شيء يتم تعلمه أو تعليمه مكملاً للشخصية الإنسانية وضرورة إقامة علاقة بين العالم الداخلي للإنسان والأشياء والأحداث. ينتقد فيما يلي العلم الذي لا يخدم هذا المقصد والذي يزيد معلومات الإنسان فحسب:

"ليس هناك شيء يمكن أن يُكسبنا إياه علم لا يُوجّه إلى كشف الغموض الموجود بين شخصيتنا وبين الأشياء، من أجل العالم الخارجي والاندماج معه. في الوقت نفسه فإن هذا الوضع يعني أن الوجدان مضطر إلى مواجهة مثل هذه الألغاز. الأمر الذي سيحافظ على الوجدان ويرعاه ويجعله إنسانياً وهو تناغم الداخل مع مشاعره الخارجية. بناء عليه فإنه عندما يحرم من هذه الرعاية لن يستطيع تأدية ما يُنتظر منه على الإطلاق"^(١).

بدلاً من تعلم المعلومات التي يمكن أن تجعل الإنسان غيبياً مولعاً بالعلم، يجب أن يتعلق القلب بالأشياء التي تؤدي إلى التكامل مع الكون. هذا الأمر هو المرحلة الأولى للتفكير، هو العلامة الأكثر قوة على روح التعلم وجديته. إن انتظام الانسان في سلك العلم بحصوله على هذه الضمانات سيحميه من سباق الحفظ والذاكرة،

(١) Gülen, F., Çağ ve Nesil, Nil Yayınları, 2002, s. 124-128.

ويحمله من الهذيان والانشغال بالقشور التي سقطت فيها المادية.^(١)

لا يرى كولن تكامل القلب والعقل باعتباره مشكلة في فلسفة التربية فحسب. بل يرى أن هذا الموضوع في الوقت نفسه هو مسألة حياتية بالنظر إلى مستقبل الدولة وتربية الأجيال الحالية.

"إذا استطعنا أن نزود عقول الأجيال بعلوم الفترة التي يعيشون، وأن نزود أفئدتهم بالنسائم التي تهب من هنا وهناك، وأن نجعلهم ينظرون إلى المستقبل بالمنشور التاريخي الذي سنجعله نبراساً في أرواحهم، فاعلموا أن أقل جهد نبذله في هذا الغرض لن يذهب سدى..".^(٢)

يأتي اغتراب الناس عن قيمهم ومجتمعهم بالنسبة لتركيا أو العالم الإسلامي، على رأس الانتقادات الموجهة لمفهوم التربية الحديثة الوضعية والمادية. إن أحد تأثيرات هذا الاغتراب هو محو شخصية الإنسان وقيمه. وعند النظر من هذه الزاوية فإنه لا يمكن القول بأن المسلمين اليوم في وضع جيد من ناحية إحياء القيم الأخلاقية والإنسانية. أما كولن فإنه يؤمن بأن الأجيال التي تنشأ داخل تكامل القلب والعقل ستكون لها ماهية ولن تغترب عن قيمها. يعبر كولن في كلماته التالية عن أن الأجيال التي تنشأ نشأة شمولية لن تكتفي بتبني القيم الإنسانية، بل ستدخل في معركة من أجل توصيلها إلى الآخرين:

"في الواقع، فإنه مثلما لم يستطع أحد إلى الآن أن يصد هؤلاء الناس الصادقين الذين يعيشون متعلقين بفكرة تكامل القلب والعقل، عن القيم التي يؤمنون بها، كذلك فلا يستطيع أحد أن يمنعهم من التحرك في مسار رضا الله، ومن السعي لمخاطبة العالم بأسره عن مشاعرهم هذه وعن الخالق".

أحد الأسباب المعرفية التي تعرقل تكامل القلب والعقل هو زعم الصراع العلمي الديني الذي أثر في ظهور الحداثة والذي يظهر كنتيجة للفلسفة الوضعية في الغرب. لا يمكن الحديث عن مفهوم للتربية يتناول الإنسان ككل من كافة الزوايا في الوسط

(١) Gülen, F., Çağ ve Nesil, s. 124-128.

(٢) Gülen, f., Buhranlar Anaforunda İnsan, Nil Yayınları, 2005, s 1114.